مقالة العدد

هل قصيدة الهايكو محنة؟

د. جمال الجزيري

كاتب وشاعر وناقد من مصر

هذا سؤال إشكالي ولا تمكن الإجابة عليه إجابة حاسمة، فمن المفترض أن أي نوع أدبي نعمة في الأساس لأنه يوسّع مجال تناول التجارب الإنسانية، وعندما تتعدد الأشكال والأنواع تتسع الرؤية وزوايا تناول التجارب الإنسانية المختلفة، الأمر الذي يخلق نوعا من التعددية في التناول وفي الرؤية وفي توسيع مدارك القارئ على السواء وفي ترسيخ مفهوم الديمقراطية التي تقبل كل الآراء وزوايا النظر. ولذلك على المستوى الافتراضي لا يمكنني أن أعتبر الهايكو محنة، خاصة وأن طبيعة الهايكو ذاتها تقوم على التعدد والتأمل والسير في الأرض بالمفهوم القرآني، وهو سير يتحول في الهايكو إلى سير فيما بين الطبيعة/الكون/ كل مظاهر الحياة وداخل الإنسان ووعيه ولاوعيه وثقافته في النظر والرؤية والرؤيا، فالهايكو يقوم على المقارنة، على إبصار العلاقات الخفية بين ظاهرتين ماديتين أو غير مادتين، بين رؤيتين، بين زاويتين للنظر إلى نفس الشيء.

أما على مستوى الواقع، فقد يتحول الهايكو إلى محنة. وهي محنة ترجع إلى عدة أسباب يمكنني أن أرصد بعضها:

أولا، هل نحن أمة تقرأ أم أمة لا تقرأ؟ وما مفهوم القراءة لدينا؟ وبناء عليه، ما مفهوم الثقافة ومفهوم التعبير ومفهوم حرية التعبير ومفهوم النوع الأدبي/الأنواع الأدبية؟ وما وظيفة الأنواع الأدبية؟ ولماذا توجد أنواع مختلفة؟ وما طبيعة كل نوع؟ وما يميز هذا النوع عن ذاك في الوظيفة والطبيعة والهوية؟ وهل النوع الأدبي نوع ساكن لا يتغير بتغير الثقافات التي يوجد فيها أم أنه نوع حركي في سيرورة وصيرورة دائمتين: لا يثبت على حال معين وإنما يتحرك ويتطور ويتشكّل على الدوام حتى داخل الثقافة الواحدة؟

ثانيا، جمهور الفيسبوك جمهور له تشكيل ديمقراطي بالمعنى السلبي والإيجابي لمفهوم الديمقراطية. فمن ناحية المعنى السلبي، يتشكّل جمهور الفيسبوك فيما يتعلق بالأدب الآن في أشخاص لا يمكن حصر توجهاتهم ولا خلفياتهم المعرفية ولا طبيعتهم الفكرية والأدبية، وهو جمهور في الغالب يتكوّن من كتّاب أكثر من تكوّنه من قراء، فالكل يقوم بالكتابة، سواء أكانت لديه موهبة أم لا، وسواء أكان يسعى لأن يطوّر هذه الموهبة بالقراءة والتساؤل والتوقف المتأمل أم يواصل الكتابة التي تقوم على التقليد في بعض الأحيان دون مساءلة أو مراجعة أو تأمل أو توقف. وهذا يسري على كل الأنواع الأدبية ولا يقتصر على كتابة الهايكو. ومن ناحية المعنى الإيجابي، هناك ديمقراطية في الكتابة وفي القراءة وفي النشر وفي التعليقات وإبداء الآراء، وهذا غير موجود في الواقع وعلى الأرض نظريا لقيود المكان والزمان ونظرا لتردّي حالة النشر الورقي والمؤسسات الثقافية في عالمنا العربي واستحواذ كتّاب محدودين وشِلَلٍ معينة على كل منبر ثقافي ونظرا لتواطؤ المؤسسات الثقافية مع السلطة السياسية في بعض الأحيان.

ثالثا، كتابة الهايكو لدى معظم كتّابها على الفيسبوك كتابة تقليدية، والتقليدية هنا من التقليد، وليست من التقاليد، فلا يوجد لدينا تراث ضخم في الهايكو يجعلنا نقول إن هذا الكاتب على سبيل المثال يقلّد مَن سبقوه أو يقتفي أثر السابقين عليه في تراث قصيدة الهايكو "العربية"، وإنما هي تقليد لترجمات ركيكة لبعض قصائد الهايكو الأسيوية، دون إدراك أن كل لغة لها خصائصها اللغوية والأسلوبية والتعبيرية، ويكفيها أن تستلهم روح النوع الأدبي/ قصيدة الهايكو هنا وتشكّل هذه الروح وفقا لخصوصية اللغة العربية وثقافتها وأساليبها التعبيرية وبلاغتها/ بلاغاتها المختلفة عن بلاغة/بلاغات اللغات والثقافات الأخرى. ولكن يبدو أن النماذج الأولى من الهايكو المترجمة إلى العربية كانت تقدّس النص الأصلي وتعتبره خاصا بثقافة معينة ولابد من المحافظة على هذه الثقافة ولغتها عند الترجمة العربية، فيما يُعرف في علم دراسات الترجمة باسم الترجمة المُسْتَعْجِمَة foreignizing translation وهي ترجمة لا تراعي خصوصية اللغة المترجم إليها (اللغة المَسْتَهْدَفَة) ولا ثقافتها ولا أساليبها المختلفة في التعبير، ومن هنا يكون النص المترجم نصا أجنبيا في لغته وذوقه وطبيعته ورؤيته بالرغم من أنه مكتوب بحروف عربية. وهذا ما يعانيه القارئ العربي عندما يقرأ نسبة كبيرة جدا من نصوص الهايكو "المؤَلَّفَة" بالعربية، فيشعر أنه غريب عنها وأنها غريبة عنه، ولا يشعر بتواصل فكري أو وجداني أو لغوي معها.

قصيدة الهايكو ليست قصيدة أشجار وطيور وبحيرات وبِرَك: قد تكون هذه الكائنات التي تنتمي للطبيعة كائنات لها حضور كبير في حياة كتّاب الهايكو الأسيويين، وهم في الغالب يستخدمونها على سبيل المجاز في قصائدهم لنقل تجارب روحانية أعمق. ولكنها تتحول على أيدي الكثيرين من الهاكدين العرب إلى كائنات ذات بُعد واحد لدرجة أن القارئ عندما يبحث عن الرؤية الإنسانية أو حتى الرؤية غير الإنسانية المتعلقة بالكائنات الأخرى في القصيدة لا يجد شيئا، فالنص عبارة عن سطح فقط بدون بُعد ثلاثي أو رباعي أو عمقٍ.

رابعا، عدم وجود متابعة نقدية على مستوى واسع لما يكتب من هايكو بالعربية يؤدي إلى انتشار كتابة الهايكو ودورانها في نفس الدائرة دون أدنى محاولة للخروج أو التطور أو تأصيل قصيدة الهايكو وتجذيرها في التربة العربية. كما أن الكثيرين من الكتّاب لا يتابعون ما ينشر من مقالات نقدية ولا يفكرون حتى في قراءتها للاستفادة منها، وكأنهم يقولون: مادامت قصائدنا تلقى الإعجاب والثناء، لماذا نتعب أنفسنا بقراءة النقد أو التنظير؟ لا يهمنا كلام هؤلاء النقاد عن ضرورة التطور والمراجعة والتأصيل مادمنا حاضرين في المجموعات وكل ما ننشره يلقى الإعجاب والاستحسان! وعلينا أن نلاحظ هنا أن الكثيرين من الكتّاب لا يأخذون موضوع الكتابة بجدية ولا يهمه إن بقى أثر يدل عليهم بعد موتهم أم لا: أي لا يهمهم أن يتركوا شيئا يُنسب لهم في التراث الأدبي الإنساني في المستقبل، لأنهم يعيشون لحظتهم الكتابية دون أدنى تفكير في طبيعتها أو نتائجها، وفقا لمبدأ "اغتنم يومَك" ومادمت "ناجحا" أو "مشهورا" أو "منتشرا" اليوم لا يهم ما سيأتي به الغد.

خامسا، حضور الهايكو أو غيرها في عالم الفيسبوك لا يختلف كثيرا عن حضور الأنواع الأدبية الأخرى عليه، وهذا الانتشار غير المسبوق في الفضاء الافتراضي جلب معه كل مساوئ ومزايا الواقع الأدبي والكتابي والتعبيري وإن كان بشكل مضخّم.

باختصار، المحنة بمعنى الاختبار والابتلاء موجودة ولكنها تتعلق بمستقبل الأدب العربي ومستقبل قصيدة الهايكو ذاتها في الثقافة العربية: وهذه المحنة امتحان لقصيدة الهايكو ذاتها وامتحان للقارئ الذي قد ينفر من كل قصائد الهايكو نظرا لكثرة القصائد الرديئة، ومن هنا تأتي المحنة للنوع الأدبي ذاته، فقصيدة الهايكو أو فن الهكيد قد يفقد مستقبله بسبب انتشار النماذج الرديئة التقليدية.

وعلينا هنا أن ننتبه إلى نقطة مهمة، وهي أن الفيسبوك برغم مساوئه خلق حراكا غير مسبوق على الساحة الأدبية، وهذا الحراك مازال في بداياته وسيؤدي بالتأكيد إلى الكثير من الظواهر الإيجابية وربما يخلق مدارس أدبية أصيلة لاحقا. والنظرة التاريخية تفيدنا هنا. فالمتابع لأي أدب في أي عصر سيجد عشرات وربما مئات الكتّاب الذين راجت كتاباتهم في هذا العصر أو ذاك. ولكن بعد انتهاء ذلك العصر، لم يصمد إلا القليلون منهم أمام اختبار أو ابتلاء الزمن، فلم تتبقّ إلى الكتابات الأصيلة الثرية على المستوى الأدبي والإنساني: أي الكتابات التي حاولت أن تقدم رؤية أدبية متميزة وجديدة تستفيد من القديم وتسعى للانطلاق والتحرر القائمين على الوعي والإحساس بالمسئولية. ولذلك، لو افترضا أن هناك ١٠٠٠ شخص يكتبون قصيدة الهايكو في عالمنا العربي وصمد منهم ٣٠ كاتبا فقط أمام اختبار الزمن واستطاعوا أن يقدموا قصيدة هايكو جيدة يمكنها البقاء في وجدان الأجيال المتعاقبة من القراء، فإن هذا يُعد إنجازا ونجاحا لقصيدة الهايكو في إثبات وجودها وحضورها في الأدب العربي.